الفصل الرابع

مكانة مدينة الفارابي الفاضلة
بين كتب الفلسفة الإسلامية

(أ) بين كتب الفارابي:

جمع كتاب «آراء أهل المدينة الفاضلة» بإيجاز واستيعاب اتجاهه السياسي والاجتماعي، وإن كانت هناك كتب أخرى بث فيها هذا الاتجاه مثل: «السياسات المدنية»، «تحصيل السعادة» وغيرها إلاّ أن العمدة في ذلك هو آراء أهل المدينة الفاضلة، فقد فرغ من عمل فصوله بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة أي قبل وفاته بعامين تقريباً فضلاً عن كثرة التنقيح والتحرير التي صاحبته من بغداد إلى حلب ودمشق ومصر.

ومن جهة أخرى فلا يوجد خلاف يذكر بين هذه الكتب جميعاً بل تكاد تتفق عباراتها.

وإليك كلمة موجزة عنها.

السياسات المدنية[1]:

يبدأ هذا الكتاب بترتيب الموجودات العلوية، والسفلية ويقرر أن العالم هو الجملة المجتمعة من الأجناس الجسمية الستة وهي:

١ ـ الجسم السماوي.

٢ ـ الحيوان الناطق.

٣ ـ الحيوان غير الناطق.

---

(١) ط مجلس دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٤٦هـ.

٤ ـ النبات.
٥ ـ الجسم المعدني.
٦ ـ الاسطقسات الأربعة.

ويشرح عمل العقل الفعال ويسميه الروح الأمين وروح القدس، ويقدم تقسيمات لقوى النفس وعلاقة النفوس الناطقة بالعقل الفعّال ويبين معاني الصورة والمادة ثم يحدّد صفات السبب الأول ـ وهو الله تعالى ـ ويقدم تحليلاً لنظرية الفيض في تصوره.

وهو في كل ذلك لا يكاد يختلف عن آراء أهل المدينة الفاضلة، فكثير من الأفكار والعبارات مشتركة بين الكتابين.

ويسير الكتاب على نفس آراء أهل المدينة في ضرورة العمران البشري، وتقسم الجماعات إلى عظمى ووسطى وصغرى، ويزيد هنا في تعليل أسباب اختلاف الأمم في الخلق والشيم واللغة ويعزوها إلى اختلاف أجزاء الأجسام السماوية التي تسامتهم وما يتبع ذلك من اختلاف البخار والماء والهواء وما يترتب عليه من اختلاف النبات والحيوان، فتختلف أغذية الأمم وذلك مورث لاختلاف الأخلاق والشيم.. إلخ.

ويعلل احتياج الناس إلى معلمين ومرشدين باحتياجهم إلى السعادة التي هي مقصود الوجود الإنساني، ولا تكون تلك السعادة إلاّ بأشياء تتعلم إذ ليس في وسع كل إنسان أن يعلم من تلقاء نفسه، فلا بدّ له من معلم ومرشد...

وذلك المعلم قد يحتاج إلى معلم أكبر منه أو رئيس أعلى... وهكذا إلى أن نصل إلى الرئيس الأول على الإطلاق وهو الذي لا يحتاج إلى أن يرأسه إنسان آخر أصلاً، بل حصلت له العلوم والمعارف باتصاله الدائم بالعقل الفعال، وهذا الإنسان هو الذي يُوحى إليه.

وأخيراً تكلم عن السعادة والمصير الإنساني، ومضادات المدينة الفاضلة بعبارات مشتركة مع آراء أهل المدينة الفاضلة.

تحصيل السعادة[1]:

قدم الفارابي في هذا الكتاب النظر الإلهي في الوجودات، ثم شرع في العلم الإنساني وبحث عن الغرض الذي لأجله كان الإنسان.

وعرف العلم المدني بأنه علم الأشياء التي ينال بها أهل المدن السعادة، وتكلم عن القوة الفكرية والفضائل المقرونة بها، وذهب إلى أن كل إنسان مفطور بالطبيعة على اتجاه معين قد يكون ملكاً أو خادماً.

وشرح طريقة تحصيل السعادة وحصرها في سبيلين:

الأول: التعليم والتأديب، وخص التعليم بالفضائل النظرية، والتأديب بالفضائل الخلقية والصناعات العملية، وفرق بينهما بأن التعليم يكون بالقول فقط والتأديب يكون بالقول وربما كان بالفعل وغايته أن تستوي الأفعال على النفوس وتجعلها عاشقة لها.

الثاني: الإكراه مع المتمردين والمعتاصين من أهل المدن والأمم الذين ليسوا ينهضون للصواب طوعاً.

ثم تكلم عن مهمة الملك أو الرئيس وهي علم المعقولات ببراهين يقينية وتلك هي السعادة القصوى، والكمال الأخير الذي يبلغه الإنسان.

ويرى الفارابي أن هذا العلم (الفلسفة) شرقي فقد كان في القديم عند الكلدانيين أهل العراق، ثم صار إلى مصر، ثم انتقل إلى اليونان، ولم يزل إلى أن انتقل إلى السريانيين ثم إلى العرب. ويسمى الحكمة على الإطلاق أو الحكمة العظمى، ويسمى المعتني بها فيلسوفاً أي محباً ومؤثراً للحكمة العظمى.

---

(١) ط مجلس دائرة المعارف العثمانية سنة ١٣٤٥هـ.

ويصرّح الفارابي أن ألفاظ الإمام والفيلسوف والملك والرئيس الأول وواضع النواميس كلها بمعنى واحد تحدده مجموعة مواصفات هي:

١ ـ ماهيته ماهية رئاسة لا خدمة.

٢ ـ حيازة الفلسفة واقتناء الفضائل النظرية.

٣ ـ له قدرة على إيجادها في كل ما سواه بالوجه الممكن.

٤ ـ لديه الفضائل الفكرية والعملية جميعها.

٥ ـ عنده جودة إقناع وتخيل.

فالملك والإمام هو بماهيته وصناعته ملك وإمام، سواء وجد من يقبل أو لم يوجد، أطيع أو لم يطع، وجد قوماً يعاونونه على غرضه أو لم يجد. كما أن الطبيب طبيب بماهيته وقدرته على علاج المرضى وجد مرضى أو لم يجد. وجد آلات يستعملها في فعله أو لم يجد، كان ذا يسار أو فقر.

* * *

والملاحظ أن هذه الكتب الثلاثة تلتقي على أهداف واحدة هي:

١ ـ تقديم النظر الإلهي في الموجودات على البحث في العلم المدني.

٢ ـ الرئيس الأول فيلسوف نبي.

٣ ـ السعادة منوطة بمعرفة آراء خاصة في الإله والكون والإنسان.

(ب) الأصول الفكرية:

ألمحنا في الفصل الأول من هذا الباب إلى المناخ الفكري الذي أحاط بالفارابي، ويكاد يتفق المؤرخون على أن مدينته الفاضلة ترتكز على أصول فكرية هي:

١ ـ الإسلام كعقيدة تفسر المبدأ والمصير، وتشرح جلال الله وقدسيته، وكشريعة تلبي كمال الإنسان وتقوده على معارج السعادة، إذ إن الإسلام يبني الحياة بقضيضها، ويتولى تقويمها عمارة للدنيا وزاداً للآخرة.

ولكن المؤثرات الإسلامية المباشرة تكمن فيما يلي:

- اهتمام الإسلام بالإنسانية قاطبة حيث هو الدين العالمي الخالد.
- الخلافة العباسية القائمة في بغداد وما تفرع عنها من دويلات.
- الشيعة ونظريتهم في الإمامة باعتبارها قضية أصولية وركناً من أركان الدين.

٢ - جمهورية أفلاطون التي أوحت إليه بكثير من الأبحاث الفكرية وخاصة في عبء القيام بتصور عام للمجتمع.

وبمقارنة جمهورية أفلاطون بمدينة الفارابي تبرز عدة نقاط هي:

* المواصفات الخاصة بالرئيس عند الفارابي تتطابق مع الشروط التي وضعها أفلاطون للفيلسوف الملك، غير أنّ أفلاطون يمتاز بأنه وضع سناً معينة لا يجوز قبلها أن يصبح الفيلسوف ملكاً وهي سن الخمسين، وألزمه أن يقضي منها خمسة عشر عاماً في الميدان العملي.

* استوعبت جمهورية أفلاطون الكثير من مشاكل المجتمع، وحاولت تقديم حلول لها وبرامج للإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وقد خلت مدينة الفارابي من كل ذلك واكتفت بالانتظار حتى يفيض العقل الفعّال على الفيلسوف النبي.

* واتخذ أفلاطون من قوى النفس أساساً لتقسيم المجتمع وتوزيع طبقاته: إلى حكام وجنود وكادحين. بينما اعتمد الفارابي أعضاء البدن ومراتب الموجودات كمعيار لتلك الطبقات.

* * *

هذا وقد ادعى الدكتور عمر فروخ أن الفارابي اقتبس صفات الرئيس من رسائل إخوان الصفا[1]، ولكني أرى أن العكس هو الصحيح لأسباب منها:

---

(١) تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص ٢٩٠.

١ ـ إن ظهور رسائل إخوان الصفا كان في منتصف القرن الرابع الهجري وقد توفي الفارابي عام ٣٣٩هـ، وذكر أبو حيان التوحيدي في مقابساته أن الوزير صمصمام الدولة سأله عام ٣٨٣هـ عن زيد بن رفاعة وهو أحد زعمائهم المؤسسين للجماعة[١].

٢ ـ إن مهمة إخوان الصفا الرئيسية كانت تبسيط الفلسفة وتقديمها لسواد الشعب، وتلك مرحلة تالية لقيام الفلسفة واستواء عودها على يدي الكندي والفارابي فليس مسلماً ـ إذن ـ ما يدعيه الدكتور فروخ من أن كثيراً من آراء إخوان الصفا نجده عند الفارابيين (الفارابي وابن سينا)[٢] على سبيل الاقتباس.

٣ ـ صرح الشيخ مصطفى عبد الرازق بتأخر رسائل إخوان الصفا عن زمن الفارابي وقال[٣]: «فرسائل إخوان الصفا التي ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بعد زمن الفارابي تقول في التعريف بالفلسفة وأقسامها: الفلسفة أولها محبة العلوم، وأوسطها معرفة حقائق الموجودات بحسب الطاقة البشرية، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم».

(جـ) في موكب الفلسفة الإسلامية:

دراسة الإنسان وقواه، والمجتمع ونظمه، والكون ونواميسه أخذ منها كل فيلسوف بطرف وذلك في إطار فلسفته الإلهية التي هي الفلسفة الأولى.

فنجد لدى بعض الفلاسفة آراء في المدنية أو الأخلاق أو الآداب

---

(١) الجانب الإلهي من التفكير الإسلامي د. محمد البهي ص ٣٠٥.
(٢) عبقرية العرب في العلم والفلسفة د. عمر فروخ ص ٩٤.
(٣) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٥٤.

العامة جاءت عرضاً خلال مذهبهم الفلسفي العام، مثل ابن سينا وابن رشد.

ونجد بعضاً آخر غلبت عليهم الصبغة الأخلاقية، واهتموا بالجانب العملي مثل إخوان الصفا والغزالي.

وهناك آخرون اهتموا بالظواهر الاجتماعية، وتحليلها مثل ابن خلدون أو تخيلوا أنماطاً خاصة للحياة الاجتماعية مثل ابن باجة وابن طفيل.

ولا بأس من إشارة يسيرة إلى نماذج من الجانب الآخر نختار منها:

ابن سينا باعتباره الشيخ الرئيس (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ).

وابن طفيل ممثلاً لفلاسفة المغرب (٥٨١هـ).

وابن خلدون باعتباره المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع (٧٣٢ ـ ٨٠٨هـ).

مدينة ابن سينا:

أدلى ابن سينا بحديث قصير في الفكر السياسي والاجتماعي سجله في ختام آرائه عن الإلهيات من كتاب «الشفاء» واستعرضه في أربعة فصول[1]:

١ ـ إثبات النبوة وكيفية دعوة النبي إلى الله تعالى.

٢ ـ العبادات ومنفعتها في الدنيا والآخرة.

٣ ـ عقد المدينة وعقد البيت.

٤ ـ الخليفة والإمام ووجوب طاعتهما والإشارة إلى السياسات.

والمنطلق الذي بدأ منه ابن سينا هو أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات، بأنه لا يحسن معيشته لو انفرد، فلا بدّ له من اجتماع

(١) الشفاء جـ ٢، ص ٦٥٢.

ومشاركة، ولا يتم ذلك إلاّ بمعاملة تحتاج بدورها إلى سنة وعدل، ويواصل ابن سينا مقدماته حتى يصل إلى ضرورة وجود النبي الذي يعرّف الناس جلال الله وعظمته وأمر السعادة والشقاء.

وحدد ابن سينا مجموعة محرمات تحظر في المدينة هي.

١ ـ البطالة مع القدرة على العمل، وجزاء الكسالى النفي من الأرض.

٢ ـ الصناعات التي يقع فيها انتقال الأملاك والمنافع من غير مصالح تكون إزاءها مثل القمار.

٣ ـ الصناعات التي تدعو إلى أضداد المصالح والمنافع، مثل تعلم السرقة واللصوصية.

٤ ـ الحرف التي تغني الناس عن تعلم الصناعات الداخلة في الشركة، مثل المراباة فإنها طلب زيادة كسب من غير حرفة تحصله.

٥ ـ الأفعال التي إن وقع فيها ترخيص أدى إلى ضد ما عليه بناء أمر المدينة مثل: الزنا واللواط الذي يدعو إلى الاستغناء عن أفضل أركان المدينة وهو الزواج.

وكان ابن سينا شيعياً في رأيه حول الخلافة فهو يذهب إلى أن الناس إذا أجمعوا على غير من وجدوا الفضل فيه والاستحقاق له فقد كفروا بالله، وأن الاستخلاف بالنص أصوب فإن ذلك لا يؤدي إلى التشعب والتشاغب والاختلاف.

وتنحصر مهمة الإمام فيما يلي:

١ ـ الأمـوال:

يجب أن يكون للمدينة مال عام يأتي من ضرائب الأرباح المكتسبة والطبيعية، ومن العقوبات المالية والغنائم، ويصرف هذا المال في المصالح المشتركة، وعلى الذين حيل بينهم وبين الكسب لأمراض وعاهات.

٢ ـ الفُـروج:

أول ما يجب أن يشرع في المدينة أمر الزواج المؤدي إلى التناسل وينبغي أن

ندعو له ونحرصُ عليه فإن به بقاء الأنواع، التي بقاؤها دليل وجود الله تعالى، ويراعى أن يقع الزواج بإعلان عام ومشهد كريم حتى لا يقع ريب في الأنساب ويضيع حقوق المواريث، ولابن سينا رأي في المرأة فهي ليست من أهل الكسب كالرجل، ولذلك يجب أن يسن لها أن تكفى من جهة الرجل الذي يملكها ولا تملكه، فلا يكون لها أن تنكح غيره، أما الرجل فلا يحجر عليه في هذا الباب وإن حرم عليه تجاوز عدد لا يفي بإرضاء ما وراءه، ويكون البضع المملوك من المرأة بأزاء ذلك، ولا يعني ابن سينا بالبضع المملوك الجماع، فإن الانتفاع به مشترك بينهما وحظ المرأة فيه أكثر بل ألاّ يكون إلى استعمالها لغيره سبيل.

٣ ـ العقوبات:

فليس كل إنسان ينزجر لما يخشاه في الآخرة.

٤ ـ الاجتهاد:

فإن للأوقات أحكاماً لا يمكن أن تضبط، وفي فرض الأحكام الجزئية فساد؛ لأنها تتغير بتغير الزمن كما أن فرض الكليات مع تمام الاحتراز غير ممكن فيجب أن يجعل ذلك إلى أهل المشورة.

هذا وتجتمع في إمام ابن سينا رؤوس الفضائل وهى:

العفة والحكمة والشجاعة، ومجموعها هو العدالة، وتسمى بالفضيلة العملية بالإضافة إلى الحكمة النظرية والخواص النبوية.

ومن حاز تلك الخصال كاد أن يصير رباً إنسانياً ـ على حد تعبيره ـ وكاد أن تحل عبادته بعد الله تعالى وهو سلطان العالم الأرضي وخليفة الله فيه.

وهذه التعبيرات الشاذة من ابن سينا تنم عن رائحة شيعية عفنة وروح طائفية متطرفة وصدق الله حيث يقول:- ﴿ ما كان لبشرٍ أنْ يؤتيَهُ اللّهُ الكتابَ والحكمَ والنبوةَ ثمَّ يقولُ للناسِ كونوا عِباداً لي من دونِ اللّهِ ولكنْ

كونوا ربّانيين بما كنتم تعلّمونَ الكتابَ وبما كنتُم تدرسونَ • ولا يامرُكُمْ أنْ تتخذوا الملائكةُ والنبيّين أرباباً أيأمركُم بالكفرِ بعدَ إذْ أنتُمْ مسلمون ﴾[1].

جزيرة ابن طفيل:

«حي بن يقظان» قصة فلسفية ساقها ابن طفيل ليؤكد عدة معان هي:

١ ـ في العقل البشري طاقات كامنة تقوده إلى أسرار الملك والملكوت.

٢ ـ الرياضة والمجاهدة طريق مثلى، لكشف حقائق الوجود الأعلى.

٣ ـ العقل والوحي سبيلان للمعرفة الصحيحة، فالفلسفة والدين وجهان لعملة واحدة.

٤ ـ الدين يسع العامة والخاصة معاً، أما الفلسفة فهي للخاصة دون الناس.

وملخص القصة أنّ حي بن يقظان نشأ في إحدى جزر الهند بالتولد الطبيعي من التربة، بعد أن نفخ الله فيه من روحه، أو قذف به إلى هذه الجزيرة داخل تابوت، بعد اتصال سري بين رجل وامرأة.. فحنت عليه ظبية فقدت طلاها (ولدها) وأرضعته ومكث في حضانتها تدفع عنه الأذى، وتحمله إلى مواضع الشجر وتساقط الثمرات، وما زال الأمر كذلك حتى أصبح يحاكي أصوات الطير، وأنواع سائر الحيوان فألفته الوحوش وألفها.

وبمرور الزمن اتخذ من أوراق الأشجار لباساً، ومن أغصانها عصياً، ثم هرمت الظبية وماتت، فوقف حي بن يقظان حائراً أمام تلك الظاهرة، فأخذ في تشريح أعضائها حتى توصل إلى معرفة الموت، وأن في القلب تجويفاً به حرارة بارتحالها ارتحلت الحياة.

ثم واصل تشريح الحيوانات الأخرى، وتصفح جميع أجسام العالم

---

(١) سورة آل عمران، آية: ٧٩ ـ ٨٠.

ورأى لها أوصافاً مشتركة وأخرى مختلفة، ونظر إلى الأجسام السماوية ورأى في أقل الموجودات من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما يبعث على العجب، فتحقق أن هذا لا يصدر إلّا عن فاعل مختار في غاية الكمال ﴿ أعطى كلّ شيء خلْقَهُ ثُمَّ هُدَى ﴾.

وأخيراً ألزم نفسه بمنهاج للوصول إلى ذلك الموجود الواجب الوجود، يتضمن برنامجاً خاصاً في الأكل لا يتجاوزه، مع الالتزام بدوام الطهارة وتعهد لباسه بالطيب حتى يتلألأ حسناً وجمالاً، ثم يقطع علائق المحسوسات ويستغرق في مشاهدة واجب الوجود.

وإلى هنا نصل إلى إبراز الجانب الاجتماعي لفكر ابن طفيل كما حددته قصته. فيشير إلى أن هناك جزيرة تقارب تلك التي نشأ بها حي بن يقظان انتقلت إليها ملة من الملل الصحيحة، ونشأ بها فتيان من أهل الفضل يسمي أحدهما: أبسالا، والآخر: سلامان، وتعلق أبسال بطلب العزلة وتعلق سلامان بملازمة الجماعة وكان اختلافهما في هذا الرأي سبب افتراقهما، فذهب أبسال إلى الجزيرة التي يسكنها حي بن يقظان، وحدث التقاء بالمصادفة بينهما فاستغرب كل منهما أمر صاحبه، ثم أنس كل منهما الآخر فشرع أبسال في تعليمه الكلام أولاً بأول، فكان يشير إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق به حتى علمه الأسماء كلها.

وأخيراً تساءلا ووصف كل منهما للآخر عقيدته ومنهاج حياته، وعرف حي بن يقظان شأن الجزيرة المقابلة له وسيرة أهلها قبل وصول الملة الصحيحة إليهم وبعدها، ووقف على ما في الشريعة من فرائض وعبادات.. إلّا أن الذي حيره أمران:

١ ـ لِمَ ضرب هذا الرسول الأمثال للناس في أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهي؟!.

٢ ـ لم اقتصر على الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتناء للأموال والتوسع في المأكل؟!.

وكان حي يرى ما في الشرع من الأحكام في أمر الأموال كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات، فكان يستغرب ذلك كله ويراه تطويلاً ويقول: إن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأغضوا عن هذه البواطل وأقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ولم يكن لأحد اختصاص بما يسأل عن زكاته، أو تقطع الأيدي على سرقته أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة.

وقد بنى حي رأيه هذا على اقتناعه بأن الناس جميعاً ذوو فطرة فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة، ولم يكن يدري ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأي وضعف العزم وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

ولما اشتد إشفاقه على الناس طمع أن تكون نجاتهم على يديه، فآثر الوصول إليهم وإيضاح الحق لديهم.. ثم شاء أن ينتقل حي مع أبسال إلى جزيرة كبيرها سلامان الصاحب القديم لأبسال، فشرع حي في تعليم أسرار الحكمة وبثها فجعل الناس ينقبضون عنه، وتشمئز نفوسهم منه رغم حبهم للخير ورغبتهم في الحق، وما زال يبين لهم الحق سراً وجهراً فلا يزيدهم إلاّ نفوراً فيئس من إصلاحهم.

ثم توجه إلى سلامان حاكم الجزيرة وأصحابه فاعتذر لهم عما تكلم به وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من حدود الشرع، والأعمال الظاهرة وقلة الخوض فيما لا يعنيهم والإيمان بالمتشابهات والتسليم لها والإعراض عن البدع والأهواء والاهتداء بالسلف، والترك لمحدثات الأمور وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من إهمال الشريعة والإقبال على الدنيا.

وحينئذ أدرك حي وأبسال أنّ هذه الطائفة لا نجاة لها إلاّ بهذا الطريق وأنها إذا رفعت إلى بقاع الاستبصار اختل ما هي عليه، وساءت

عاقبتها وإن هي داومت على ما هي عليه حتى يوافيها اليقين، فازت بالأمن وكانت من أصحاب اليمين[1].

ويعلق دي بور على تلك القصة بقوله[2]:

(وقصة حي بن يقظان أقرب لأن تمثل تاريخ الإنسان في تطوره مما كتبه المفكرون الأحرار في القرن الغابر، وتدل نبذ كثيرة في قصة ابن طفيل على أنه كان يقصد من «حي» أن يمثل الإنسانية لو لم ينزل عليها وحي سماوي، ويتمثل في قصة حي تطور الحكمة الهندية الفارسية واليونانية).

دولة ابن خلدون:

ابن خلدون علم من أعلام الفكر الإنساني، تتنازعه علوم الفلسفة والاجتماع والاقتصاد والتربية والسياسة والقضاء، وقد رشحه لكل ذلك مقدمة كتابه في التاريخ التي وسعت كافة الباحثين في الحضارة الإسلامية..

ومحور الدراسة فيها قائم على الظاهرة الإنسانية تحليلاً وتعليلاً، غير أنها لا تخلو من تقييم لفكرة أو تقديم لمنهج أو دعوة للإصلاح. وتتضح هذه الحقيقة من استعراض سريع لها.

المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها.

الكتاب الأول: في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب.

وقد ساقه في ستة فصول:

الفصل الأول: في العمران البشري.

---

(١) حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي. تحقيق وتعليق د. أحمد أمين.

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ص ٢٥٢.

واعتبر ابن خلدون الاجتماع الإنساني ضرورياً، وأن الله قد خلق الإنسان وركبه على صورة لا يصح حياتها وبقاؤها إلاّ بالعمران البشري وأعقب ذلك بعدة مقدمات في قسط العمران من الأرض وما فيه من أشجار وأنهار وأقاليم وتوزيع البشر على سطح اليابسة وتفصيل الكلام على هذه الجغرافيا، وشرح تأثير الهواء وغيره في ألوان البشر وأخلاقهم.

وختم الفصل بالكلام عن أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو الرياضة وفسر حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا.

الفصل الثاني: في العمران البدوي.

وعرض فيه حقائق متعلقة بالبدو منها:

١ ـ إن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ذاهبة بالمنعة منهم، ويفرق هنا بين الأحكام السلطانية والتعليمية وبين أحكام الدين وآدابه فيقول:

«ولا يستنكر ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم، بل كانوا أشد الناس بأساً، لأن الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم كان وازعهم فيه من أنفسهم، لما تلي عليهم من الترغيب والترهيب، ولم يكن بتعليم صناعي ولا تأديب تعليمي إنما هي أحكام الدين وآدابه المتلقاة نقلاً يأخذون أنفسهم بها بما رسخ فيهم من عقائد الإيمان والتصديق، فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تخدشها أظفار التأديب والحكم.

قال عمر رضي الله عنه: «من لم يؤدّبه الشرع لا أدبّه الله» حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه، ويقيناً بأن الشارع أعلم بمصالح العباد، ولما تناقص الدين في الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علماً وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب، ورجع

الناس إلى الحضارة وخلق الانقياد إلى الأحكام ـ نقصت بذلك سورة البأس فيهم».

٢ ـ إن المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده.

٣ ـ إن العرب لا يحصل لهم الملك إلاّ بصبغة دينية: من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة؛ لأنهم أضعف الأمم انقياداً بعضهم لبعض وقلما تجتمع أهواؤهم.

الفصل الثالث: في الدولة العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية. يقرر ابن خلدون أن الدولة العامة العظيمة الملك أصلها من نبوة أو دعوة حق؛ لأن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد، الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق. واعتبر للدولة أجلاً تنتهي عنده تمر خلاله بثلاثة أجيال: جيل يبني ويؤسس، وثان يحافظ، وثالث ينغمس في الترف وينسى الحماية والمدافعة.

وقدم ابن خلدون تحديداً طريفاً للملك والسياسة والخلافة، فحقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ومقتضاه التغلب والقهر اللذان هما من آثار الغضب والحيوانية، وأحكام صاحبه في الغالب جائرة عن الحق.

فإن رجع الأمر إلى قوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقلية.

وإن كانت مفروضة من الله بشارع يقررها كانت سياسة دينية.

وحقيقة الخلافة أنها نيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وسياسة الدنيا.

وشروط الخليفة أربعة:

١ ـ العلم.

٢ ـ العدالة.

٣ ـ الكفاية.

٤ ـ سلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل، أما اشتراط النسب القرشي فقد اعتبره ابن خلدون إشارة إلى أن يكون القائم بأمر المسلمين من قوم أولي عصبية قوية غالبة على من معها لعصرها.

وأناط ابن خلدون بالخليفة مهام رئيسية هي:

١ ـ **الصلاة**: وهي أرفع المهام ويشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضى الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم: «ارتضاه رسول الله ـ ﷺ ـ لديننا أفلا نرضاه لدنيانا» فلولا أن الصلاة أرفع من السياسة لما صح القياس، فعلى الخليفة النظر في أمر الجمع والجماعات والأعياد والعناية بالمساجد.

٢ ـ **الفُتيا**: وهي من مصالح المسلمين في دينهم فيجب عليه مراعاتها، والعناية بأهل العلم والتدريس ورد الفتيا إلى من هو أهل لها، ومنع من ليس أهلاً وزجره.

٣ ـ **القضاء**: وهو منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسماً لتداعي وقطعاً للنزاع، وهو بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنة.

٤ ـ **الجهاد**.

٥ ـ **الحسبة**: وهي من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين يعين لذلك من يراه أهلاً.

الفصل الرابع: في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يجب مراعاته في أوضاع المدن، وفصل القول في المساجد والبيوت العظيمة في العالم.

الفصل الخامس: في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع.

الفصل السادس: في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر

وجوهه، وقدم فيه تاريخاً موجزاً لعلوم القرآن والحديث والفقه وأصوله والفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتصوف واللغة.. إلخ ونعى على الفلسفة كثيراً وحاول إبطالها وقال: «فليكن الناظر فيها متحرراً جهده من معاطبها، وليكن نظر من ينظر فيها بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكن أحد عليها وهو خلو من علوم الملة فقل أن يسلم لذلك من معاطبها».

وقدم ابن خلدون منهجاً للتربية ملخصه:

١ ـ إن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل.

٢ ـ إن كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم.

٣ ـ إن العلوم الآلهية لا توسع فيها الأنظار ولا تفرع المسائل.

٤ ـ إن الشدة على المتعلمين مضرة بهم.

٥ ـ إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم.

٦ ـ إن العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها.

وبعد:

فتلك ملامح عامة للفكر الاجتماعي والسياسي بعد الفارابي قدمناها على هامش مدينته الفاضلة ليبقى هو قائد المسيرة وحامل المشعل وحائز قصب السبق في موكب الفلسفة الإسلامية التي أسس قواعدها وفتح مغاليقها وخاض غمارها بحب وعمق ووفاء.

* * *